شرح جوهرة التوحيد

المسمّاة

إتحاف المريد بجوهرة التوحيد

للعلّامة عبد السلام بن إبراهيم اللقاني

١٠٧٨ هـ - ٩٧١ هـ

ومعه النظام الفريد بتحقيق جوهرة التوحيد

للمرحوم محمد محيي الدين عبد الحميد

قدم له

محمد علي اوبي

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله العليّ شأنه ، الجليّ برهانه ، القوي سلطانه ، الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهنّ بكمال قدرته ، وجعل الأمر يتنزل بينهنّ ببالغ حكمته ، وكرّم بني آدم بالعقل العزيزي ، والعلم الضروري ، وأهّلهم للنظر والاستدلال ، والارتقاء في مدارج الكمال ، ثم أمرهم بالتفكر في مخلوقاته ، والتدبر في مصنوعاته ، ليؤديهم إلى العلم بوجود صانع قديم ، قيّوم حكيم ، واحد أحد ، فردٌ صمد ، منزه عن الأشباه والأمثال ، متصف بصفات الجلال والكمال ، غنيٌ عما سواه ، مفتقر إليه كل ما عداه ، توحّد بالقدم والبقاء ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ حبيب الله الأكرم ، ورسوله المعظم ، ختم سبحانه به الرسل ، وجعله سيد البشر ، وأرسله إلى الأسود والأحمر ، وخصه بالشفاعة العامة في يوم المحشر ـ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ومن اتبع سنته إلى يوم الدين ما هلل حاجٌ وكبر .

وبعد : فإنّ أرفع العلوم وأعلاها ، وأحراها بعقد الهمة بها ، وصرف الهمة إليها علم الكلام ـ المتكفل بإثبات الصانع وتوحيده ، وتنزيهه عن مشابهة الأجسام ، واتصافه بصفات الجلال والإكرام ، وإثبات النبوة التي هي أساس الإسلام ، وعليه مبنى الشرائع والأحكام .

فعلم أصول الدين ـ ويقال له علم الكلام ـ هو أشرف العلوم محجّة ، وأوضحها حجة ، لأنّه هو الكاشف عن أستار الألوهية ، والفارق بين النبي والمتنبىء ، فكان الاشتغال به أحسن الاشتغال ، والمذاكرة والمباحثة فيه خير القيل والقال ؛ لأنه وسيلة السعداء إلى مقاربة الملأ الأعلى ، وجنة الخلد وملك لا يبلى ، من تمسك به فقد اهتدى ، ومن أعرض عنه فقد هوى وضل ضلالاً بعيداً .

وكتابنا هذا خطوة على هذا الدرب ـ بل هو عمدة طلاب العلم خصوصاً في هذا العصر ـ فمؤلفه العالم العلاّمة ، والحبر البحر الفهّامة الشيخ إبراهيم اللقاني شيخ المالكية في عصره ، وقد نظم متنه في ليلة واحدة ، إجابة لرغبة شيخه العلامة أحمد عرب الشرنوبي ، ثم شرحه ثلاثة شروح : كبير ووسط ووسط .

ثم إنّ ابنه الحافظ المتقن عبد السلام بن إبراهيم شرح النظم شرحاًمختصراً جداً سماه : **إرشاد المريد** ـ ضمنه مختار أهل السنة من غير مزيد ، لكنه بعدما أخرجه ، وتناوله بعض طلبة التكرور ـ بلاد تنسب إلى قبيل من السودان من أقصى جنوب المغرب ، وأهلها أشبه بالزنوج ـ أفصح بما ينبىء عن قصور همته ، فأسعفه بشرح وسط سماه : **إتحاف المريد بجوهرة التوحيد** ـ وهو كتابنا هذا .

وقد اعتنى بهذا النظم والشرح علماء كبار ، وأئمة عظام :

منهم العلامة الشيخ محمد بن محمد بن أحمد السنباوي ـ نسبة إلى ناحية بمصر ـ الأزهري المعروف بالأمير ـ لأن جدّه أحمد كانت له إمرة الصعيد بمصر ـ المولود بمصر سنة /١١٥٤ هـ/ والمتوفى في القاهرة سنة /١٢٣٢ هـ/ وضع على إتحاف المريد حاشية سهلة العبارة ، عظيمة النفع ـ وهي مطبوعة متداولة .

ثم جاء العلامة أحمد بن محمد الصاوي ـ نسبة إلى صاء الحجر في إقليم الغربية بمصر ـ الفقيه المالكي المولود بمصر سنة /١١٧٥ هـ/ والمتوفى بالمدينة المنورة بأنوار المصطفى ﷺ سنة /١٢٤١ هـ/ فوضع على النظم تقييدات مستفيضة ، بعبارة سهلة وأسلوب ميسر ، وهو ما يعرف : بحاشية العلامة الصاوي على جوهرة التوحيد ـ وقد طبع مرات عديدة .

ثم جاء العلامة الإمام شيخ الجامع الأزهر الشيخ إبراهيم بن محمد بن

أحمد الباجوري ـ نسبة إلى الباجور من قرى المنوفية بمصر ـ الفقيه الشافعي المعروف المشهور ، المولود سنة /١١٩٨ هـ/ والمتوفى بمصر سنة /١٢٧٧ هـ/ فوضع على النظم حاشية مطولة فيها الغالي والنفيس سماها : **تحفة المريد على جوهرة التوحيد** ، وقد طبعت طبعات عديدة ، ومنها أخذ الشيخ محيي الدين عبد الحميد تحقيقاته لكتابنا ، لكنه اختار وأحسن الاختيار ، وسبك ما اختاره بعبارة سهلة واضحة ميسرة .

ثم شرح النظم العلامة الأستاذ الشيخ محمد بن محمد خير الدين آغا الحنيفي الحلبي المولود سنة/١٢٩٢هـ/ والمتوفى سنة/١٣٤٢هـ/ شرحاً وسطاً ، اقتصر فيه على شرح مواقع الفائدة ، تاركاً ما وراء ذلك إلى الطالب : إعمالاً لفكرته ـ وشرحه مطبوع نادر .

هذا وقد شرح النظم حضرة صاحب الفضيلة شيخنا وأستاذنا العلامة المتواضع المحب الفاني الشيخ بكري بن عبدو رجب البابي الحلبي ، ولد رحمه الله تعالى في الباب ـ من أعمال حلب ـ سنة /١٩١٠ م/ وتوفي بحلب سنة /١٩٨٠ م/ ، كان رحمه الله قد أخذ العلوم الشرعية في المدرسة الخسروية ، ولما عُهد إليه بتدريس الجوهرة لطلابها رأى شرح العلامة الباجوري مطولاً ، فوضع على الجوهرة شرحاً متوسطاً سماه : **هداية المريد إلى جوهرة التوحيد** ـ وقد رأيت في أعلى صفحة عنوان الكتاب من الداخل هذين البيتين ـ وأظنهما من نظمه ، فقد كان رحمه الله تعالى شاعراً وله ديوان مطبوع ـ أحببت ذكرهما :

يا ناظراً فيه لا تُخْلِ مؤلفه عند التأمل من شيء تناوله
إن كنت تبخل بالظن الجميل فلا تبخل بقولك: ربّ اغفر لنا وله

هذا ولما نفدت نسخ الكتاب ، وعزّ وجوده مع حاجة الطلبة إليه ، شرح الله صدري لإعادة طبعه ، فكتبت له هذه المقدمة التي استقيتها من كتب السادة العلماء ، وليس لي فيها إلا الجمع والتنسيق ، ثم كتبت ترجمة موجزة لناظم الجوهرة وشارحها ، وللأستاذ محيي الدين عبد الحميد ، ووضعت

فهرساً يسهل الرجوع إلى الكتاب في آخره ـ حيث إنه طبع مرات دون الفهارس ـ.

ولئن كان في الأجل فسحة ، فإنّ لي عودة إن شاء الله تعالى إلى الكتاب لإخراجه بحلة قشيبة وثوب جديد ، بعد إضافة تعليقات مهمة عليه ، كنت قيدتها عند دراستي للكتاب على أساتذتي الكرام جزاهم الله عني كل خير ، في مدرستنا مدرسة التعليم الشرعي ـ الشعبانية ـ حرسها الله تعالى وحفظها إلى أن يرث الأرض ومن عليها ، وجعل طلابها وجميع طلاب العلوم الشرعية : منار هدى ونور ووفقهم لما يحبه ويرضاه ـ آمين .

وأسأل الله سبحانه التوفيق لما يحبه ويرضاه ، وأن يجعلني من أمة أتباع حبيبه الأكرم سيدنا محمد ﷺ ، وأن يرزقني حبه وشفاعته عليه الصلاة والسلام إنه قريب مجيب .

وأسأله سبحانه أن يجزي عني والديّ خير الجزاء ، وأن يمدهما بالصحة والهناءة والعافية ، وأن يوفقهما للعمل لما فيه رضاه ورضى حبيبه سيدنا محمد ﷺ .

وأن يجزي عني أساتذتي كل خير في الدنيا والآخرة ، وأن يتغمد بعظيم رحمته ورضوانه من انتقل منهم إلى جواره ، وأن يديم الصحة والهناءة والسعادة والعافية والأمن والأمان على من بقي منهم في هذه الحياة الدنيا ، وأن يديمهم منار هدى ونور لعباده إنه سميع قريب مجيب ، وهو نعم المولى ونعم النصير ـ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وكتبه

محمد علي إدلبي

الجمعة /٢٦/ محرم /١٤١١/

حلب حرسها الله تعالى

ترجمة صاحب الجوهرة

الإمام الهمام أبو الإمداد برهان الدين إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللَّقاني ـ نسبة إلى لَقانة ، قرية من قرى مصر ـ أحد الأعلام المشار إليهم بسعة الاطلاع في علم الحديث والدراية ، والتبحر في الكلام ، وكان إليه المرجع في المشكلات والفتاوى في وقته بالقاهرة .

وكان قوي النفس ، عظيم الهيبة ، يصرف وقته في الدرس والإفادة .

وكان جامعاً بين الشريعة والحقيقة ، له كرامات خارقة ، ومزايا باهرة .

وألف التآليف النافعة ، منها منظومته هذه ـ الجوهرة ـ في علم العقائد ، نظمها في ليلة بإشارة شيخه العلامة الشرنوبي رحمه الله تعالى .

وكان رحمه الله تعالى كثير التلامذه ، لم يجتمع لعلماء عصره منهم ما اجتمع له ، وكان كثير الفوائد .

ونقل في شرحه على الجوهرة قال : ليس للشدائد والغموم ، مما جربه المعتنون مثل التوسل بسيدنا رسول الله ﷺ .

توفي وهو راجع من الحج سنة /١٠٤١ هـ/ رحمه الله رحمة واسعة .

ملخصاً من خلاصة الأثر للمحبي

ترجمة شارح الجوهرة

الحافظ المتقن الفهامة شيخ المالكية في وقته بالقاهرة عبد السلام بن إبراهيم بن إبراهيم اللَّقاني المصري .

كان في مبدء أمره ملازماً لدروس والده ـ صاحب الجوهرة ـ فلما توفي والده تصدر للتدريس مكانه في الجامع الأزهر ، وانتفع به خلق كثير .

وكان إماماً كبيراً محدثاً باهراً ، أصولياً ، إليه النهاية .

وله تآليف حسنة الوضع منها كتابنا هذا .

وكان ذا شهامة ، وله شدة وهيبة ، وكان كبار المشايخ من أهل وقته يحترمون ساحته ، وينقادون لرأيه .

ولد سنة /٩٧١ هـ/ وتوفي يوم الجمعة الخامس عشر من شوال سنة /١٠٧٨ هـ/ رحمه الله رحمة واسعة .

اهـ من خلاصة الأثر للمحبي بتصرف

ترجمة صاحب : النظام الفريد

الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد

ولد رحمه الله تعالى بقرية كفر الحمام الشرقية ـ بمصر ـ سنة /١٣١٨ هـ/ وتعلم بدمياط ، وحصل على شهادة الأزهر العالية .

عمل مدرساً في مصر والسودان ، ثم عميداً لكلية اللغة العربية ، فعضواً للمجمع اللغوي بالقاهرة .

اشتهر رحمه الله تعالى بتصحيح المطبوعات وتحقيقها ، وأشرف على طبع العشرات منها .

توفي سنة /١٣٩٣ هـ/ رحمه الله رحمة واسعة .

ملخصاً من الأعلام للزركلي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد المرسلين وقائد الغر المحجلين ، سيدنا محمد المخصوص بالشفاعة ، يوم قيام الساعة ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

اللهم إني أحمدك خير الحمد لديك ، وأرضى الحمد إليك ، وأفضل الحمد عندك ، سبحانك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، عز جارك وفلج من استعان بك ! وأشهد أن لا إله إلا أنت ، وأن محمداً عبدك ورسولك ، وصفيك وخليلك ، وخيرتك من خلقك ، بلغ عنك ، فأدى الأمانة حق أدائها ، وما زال على سبيلك الذى ارتضيته حتى لحق بالرفيق الأعلى ، اللهم فصل عليه صلاة ترفع بها قدره ، وتعلي ذكره ، وعلى أصحابه الذين اقتفوا أثره ، وساروا على نهجه ، وعلى أتباعهم إلى يوم الدين .

أما بعد ، فإن شرح الشيخ عبد السلام بن إبراهيم اللقانى المالكى على جوهرة التوحيد لوالده وأستاذه فى علم العقائد — قد لقى من علماء المسلمين قبولاً ، وحل من قلوبهم المحل الأسمى ؛ لاخلاص مؤلفه النية فيه ، ولاقتصاره على عقائد أهل السنة والجماعة ، وإني كنت أحدث النفس منذ عهد بعيد بأن أكتب عليه شرحاً يوضح مرامه ويروض صعابه ، ويبين إشارات مبانيه ويمهد هضابه ، ويقيم على مختاره الأدلة ، وكانت الشواغل تصرفني عن

ذلك ، ثم انتهزت فى هذه الأيام فرصةً سانحةً ونُهزة لائحة ، فكتبت هذا الشرح فى بضعة أيام متوخِّياً فيه سهولة العبارة وضمَّ الأشتات ، ووضوح المقاصد وبيان الإشارات ، ولست أزعم أنني أتيت فيه بالجديد الذى لم يُسبق إليه ، ولكني اقتديت فأحسنت الاقتداء ، وتأسَّيْتُ فأجدت الائتساء ، واتبعت ، وما ابتدعت ، فما كان فيه من صواب ، فهو من توفيق رب الأرباب ، وما كان فيه من خطأ فهو من نفسي ، والله ـ سبحانه ا ـ المسئول أن ينفع به ، ويجعله خالصاً لوجهه ، مقرباً إليه ، وأن يكتبه لنا في سجل الحسنات !

ربِّ إن بك اعتصامى ، وإليك قَصْدِى ، وعليك اعتمادى ، ولك توجُّهى ، لا تَكِلْنِي إلى غيرك ، ولا تجعل إلا إليك حاجتي ، بيدِك الخير ، وأنت على كل شىء قدير .

ربِّ اغفر لي ولوالدىَّ ولمن دخل بيتي مؤمناً ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ربِّ هبني رضاك ، واكتبني عندك من الفائزين ؟

كتبه المعتز بالله تعالى وحده

محمد محيى الدين عبد الحميد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الذي رَفَعَ لأهل السُّنَّة المحمَّدية فى الخافقيْن أعلاما[1] ، ووضع بواضح أدلَّتهم من شُبَه المخالفين أعلاما[2] ، وأشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده

---

(١) وصف الشارح المحمود جل جلاله بالموصول وصلته لأنه يريد الحمد الذى يقع من الحامد فى مقابلة نعمة وصلت إليه من المحمود ؛ لما قيل : إن الحمد المقيد خير من الحمد المطلق ، ووجه ذلك أن الحامد حمداً مقيداً يثاب على حمده هذا ثواب من فعل واجباً ، والحامد حمداً مطلقاً يثاب ثواب من فعل مندوباً ، وإنما كان ذلك كذلك لأن الحمد المقيد شكر للمنعم على نعمته ، وشكر المنعم واجب اتفاقا ، غير أن المعتزلة يقولون : أوجبه العقل . وهذا بناء على ماذهبوا إليه من التحسين والتقبيح العقليين ، وأهل السنة والجماعة يقولون : أوجبه الشرع ، والمراد بالسنة طريقة سيد الثقلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وطريقته : كل ماجاء به القرآن الكريم ؛ لما ورد فى الحديث من أنه عليه الصلاة والسلام «كان خلقه القرآن» والخافقين فى الأصل : المشرق والمغرب ، والمراد بهما عموم الجهات ، وتسمية هاتين الجهتين خافقين لأن الرياح تخفق فيهما : أى تضطرب ذاهبة وجائية ، فهو مجاز عقلى بإسناد الفعل إلى مكان حصوله ، والأعلام : جمع علم — بفتح العين المهملة واللام جميعاً — وهو فى هذه الفقرة بمعنى الراية ، وقد جرت العادة بألا تنصب الرايات إلا فوق رءوس عظماء الناس ؛ فهذه الفقرة كناية عن ثبوت صفة الرفعة وعظم الشأن لأهل السنة المحمدية .

(٢) الشبه — بضم الشين المعجمة وفتح الباء الموحدة — جمع شبهة ، وهى مايعرض للناظر فى أمر من الأمور ولم يصل إلى درجة العلم واليقين ، وهى فى الأصل مأخوذة إما من المشابهة بمعنى المماثلة ، لأنها — بحسب الظاهر — تشبه الدليل الصحيح وإن كانت عند التحقيق زائفة غير رائجة ، وإما من الاشتباه بمعنى الالتباس ؛ لأنها توقع من عرضت له فى الالتباس واختلاط الصحيح بالفاسد فى نظره ، والأعلام : جمع علم وهو فى هذه الفقرة بمعنى الجبل ، وفى قوله « رفع » و « وضع » طباق ، وفى قوله « أهل السنة » مع قوله « المخالفين » وقوله «واضح أدلتهم» مع قوله « شبه » شبه الطباق ، وفى قوله « أعلاما » فى الفقرة الأولى مع قوله «أعلاما» فى الثانية جناس تام .

لاشريك له شهادةً تكون بالتخلص فى الدارين إعلاما[1] ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبدُهُ ورسولُه الممنوحَ من اتّبعَه من الجنان أعلاماً[2] ، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه ما أُيِّدَتْ قواعِدُ العقائد[3] ، وما حُليت الجِيَادُ بجواهر الفرائد[4] .

وبعد ، فيقول العبد الفقير الحقير الفانى ، عبدُ السلام بنُ إبراهيمَ المالكيُّ اللَّقانى ، ستر الله عيوبه ، وغفر ذنوبه :

قد كنتُ لَخَّصْتُ ما علّقه أستاذُنا من «عمدة المريد» على عقيدته المسماة «جوهرة التوحيد» فى أوراق قليلةٍ سميتها « إرشاد المريد » ضمنتها مختارَ أهلِ

---

(١) الإعلام فى هذه الفقرة بكسر الهمزة أوله ، وهو مصدر أعلم ، وفيه مع ماقبله جناس محرف ، والضابط فيه : أن يتفق اللفظان فى الحروف ويختلفا فى المعنى والضبط . ومثاله «جبة البرد جنة البرد» فالبرد الأول بضم الباء والثانى بفتحها .

(٢) الأعلام هنا بمعنى الرتب العالية ، وجوز الأمير رضى الله عنه أن تكون « أعلاما» مؤلفة من كلمتين : إحداهما «أعلا» وهى أفعل تفضيل ، والثانية «ما» وهى كافة أو بمعنى درجة ، ومراده بأنها بمعنى درجة أنها نكرة بمعنى شيء والمراد بها درجة ، وكأنه قال «أعلى درجة » وعلى كل حال فالممنوح نعت لمحمد ، و« من» اسم موصول نائب فاعله ، فهو نعت سببى ، و «أعلاما» مفعول ثان للممنوح .

(٣) « ما » فى قوله « ما أيدت » مصدرية ظرفية ، وكأنه قال : مدة تأييد قواعد العقائد ، وقد شبهت العقائد بقصور ذات قواعد تشبيها مضمراً فى النفس ، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وعلى هذا تكون القواعد جمع قاعدة بمعنى الأساس الذى يعمل لإرساء غيره عليه ، وتكون إضافة القواعد إلى العقائد بيانية : أى قواعد هى العقائد

(٤) الجياد : جمع جيد ، ونظيره ذئب وذئاب . والجيد : العنق ، والإضافة فى «جواهر الفرائد» من إضافة الموصوف إلى الصفة ، نظير قولهم « مسجد الجامع » والفرائد : جمع فريدة ، بمعنى منفردة ، أو بمعنى مفردة ، سميت بذلك لأنها تفرد من غيرها ، أو لأن العالم بها يفردها عن غيرها من الجواهر لحسنها ونفاستها .

السنة من غير مَزِيد ، فحين أخرجْته وتناوَلَه بعض طلبة التُّكْرُور ، ضاعف الله لى ولهم الخيراتِ والأجُورَ ! أفْصَحَ بما ينبىء عن قصور همته ، وتنائى رغبته ، ولَيْتَه نظر إلى قوله :

فكُنْ رجلاً رِجْلُه فى الثَّرَى وهامَةُ هِمَّتِـــهِ فى الثُّرَيَّا[1]

فبادَرْتُ إلى إسعافه بصَرْفِ شاغله ؛ لما جاء أن الدَّالَّ على الخَيْر كفاعله ، ووضعت له ما يكون لألفاظها مُبَيِّنًا ، ولإيضاح معانيها مُعَيِّنًا .

وسميته « إتحاف المريد ، بجوهرة التوحيد » .

سائلا من وَلِىِّ التوفيق ، دوامَ النفع به والهداية لأقْوَمِ طريق ، وأن يَجْعله خالصاً لوجهه الكريم ، وسَبَبًا للفوز لديه بِجِنَانِ النعيم ! .

---

(١) هذا ثانى ثلاثة أبيات من بحر المتقارب ، وهاكها :

إذَا أظْمَأَتْكَ أكُفُّ اللِّئَامِ كَفَتْكَ الْقَنَاعَةُ شِبْعًا وَرِيًّا
فَكُنْ رَجُلاً رِجْلُهُ فِى الثَّرَى وَهَامَةُ هِمَّتِهِ فِى الثُّرَيَّا
فَإِنَّ إرَاقَةَ مَاءِ الْحَيَـــا ةِ دُونَ إرَاقَةِ مَاءِ الْمُحَيَّا

وأظمأتك : أعطشتك ، يعنى إذا وجدت الناس قد ذهب خيرهم ولم يبق كريم يرتجى فلا تقصد أحداً منهم فى طلب معروف ، والزم القناعة عما فى أيديهم ، والثرى ـ بفتح الثاء مقصوراً ـ التراب . والهامة فى الأصل : الرأس ، وإضافة الهامة إلى الهمة تخييل ، والثريا ـ بضم الثاء ـ عدة نجوم متلاصقه فى برج الثور ، يريد أنه يجب عليك أن ترتفع عن اللئام ، وترأب بنفسك عن أن تكون معهم ، وماء الحياة : الدم ، والمحيا : الوجه .

قال رحمه الله تعالى : أؤلف مستعيناً[١] (بسم الله الرحمن الرحيم) اقتداء بالكتاب العزيز[٢] ، ولقوله عليه الصلاة والسلام « كل أمر ذي بال لا يُبْدَأ فيه

---

(١) أشار الشارح بقوله « أؤلف » إلى متعلق الباء فى البسملة ، وبقوله « مستعينا » إلى معنى الباء ، وفى كل واحد من الأمرين مقال واختلاف ، ونحن نجمله لك ، فنقول : هذه الباء حرف من حروف المعانى ؛ فلا بد من معرفة معناها ، ولابد لها من متعلق ، فأما معناها فقد اختلف العلماء فيه ؛ فقيل : هى للمصاحبة على وجه التبرك ، وقيل : هى للاستعانة على وجه التبرك أيضا ، فأما الذين ذهبوا إلى أنها للمصاحبة على وجه التبرك فإنما دعاهم إلى ذلك ادعاؤهم أن الاستعانة إنما تكون بذات الله ، لا باسم من أسمائه ، وادعاؤهم أن فى جعل الباء للاستعانة سوء أدب ؛ لأن باء الاستعانة تدخل على الآلة كما فى قولك : كتبت بالقلم ، ويلزم على ذلك جعل اسم الله تعالى مقصوداً لغيره لا لذاته ، والجواب عن ذلك : أما عن الأول فإنه لامانع من الاستعانة باسم الله تعالى كما يستعان بذاته ، وأما عن الثانى فيقال : إن معنى الاستعانة باسم الله تعالى أن الأمر المشروع فيه لايتم على الوجه الأكمل إلا باسمه سبحانه ، وكيف يكون فى الاستعانة باسم الله تعالى سوء أدب وقد ورد فى الحديث الأمر بالاستعانة به سبحانه ، وذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا استعنت فاستعن بالله » وإذا عرفت هذا فلا تلتفت إلى ماقيل : إن سوء الأدب مع هذا المعنى المقصود بالاستعانة لايزال موجوداً ، وأما متعلق الباء فقد اختلفوا فيه أيضاً ، هل يقدر فعلا أو اسما ؟ وعلى كل واحد منهما هل يقدر متقدما أو متأخراً ؟ وعلى كل من هذه الأوجه هل يقدر عاما كأبتدىء وابتدائى أو يقدر من جنس المشروع فيه فيقال : أؤلف أو تأليفى ، إذا كان المشروع فيه تأليفاً ، وأشرب أو شربي ، إذا كنت شارعا في الشرب ؟ وهلم جرا ، والأصح أنه يقدر فعلا ؛ لأن الأصل في العمل للأفعال ، ويقدر متأخراً ؛ لكي لايتقدم على اسم الله تعالى شىء لا فى اللفظ ولا فى التقدير ، ومن جنس المشروع فيه ؛ لأن كل شارع في شيء يجعل التسمية مبدأ لذلك الفعل ، وفي هذا القدر كفاية .

(٢) ذكر الشارح سببين للابتداء باسم الله تعالى ؛ الأول : الاقتداء بالكتاب العزيز ، والمراد به القرآن الكريم ، وليس معنى ذلك أن أول شىء بدىء بنزوله من القرآن الكريم هو البسملة ؛ فإن المعروف أن أول شىء نزل به جبريل من القرآن الكريم هو قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذي خلق ـ الآيات من أول سورة العلق) وإنما المقصود أن أول

بسم الله الرحمن الرحيم»[٦] أى بُدَاءة، حقيقية[٢] «فهو أبتر» أو «أقطع»

القرآن الكريم فى ترتيبه الذى أمر به الرسول صلوات الله وسلامه عليه بإرشاد جبريل هو ذلك ؛ فإن المعلوم أن جبريل عليه السلام كان يقول للنبى صلى الله عليه وسلم عقب نزول شىء من القرآن : موضع هذا فى مكان كذا ، بين كذا وكذا، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بذلك ، وشىء آخر يدل على ذلك، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينزل إليه جبريل فى رمضان من كل عام فيدارسه القرآن، وكان رسول الله يدارس زيدا بعد مدارسة جبريل ؛ فثبت بهذا أن القرآن الكريم كان مرتباً ترتيباً توقيفياً غير ترتيب نزوله ، وهو على الوجه الذى بلغنا متواتراً التواتر الذى يفيد القطع ، ثم إن ابتداء القرآن بالبسملة لايستلزم أنها جزء منه ؛ فإن الأكل وغيره من الأفعال تبدأ بالبسملة ، وليست هى جزءا من شىء منها ، وفى هذه المسألة أقوال كثيرة ولكن أشهرها ثلاثة : الأول — وهو مذهب مالك رضى الله عنه — أنها بعض آية من سورة النمل ، لاغير ، والثانى — وهو مذهب الشافعى رضى الله عنه — أنها آية من سورة الفاتحة ومن كل سورة من سور القرآن ، والثالث — وهو المعروف من مذهب الحنفية — أنها آية مستقلة نزلت ليفصل بها بين السور ، وليست آية من الفاتحة بخصوصها ، ولا من سورة أخرى ، غير النمل فإنها بعض آية من أثنائها ، والسبب الثانى أنه أراد العمل بالحديث النبوي الذي رواه وسنتكلم عليه فيما يلى .

(١) البال : الشأن والحال ، والمراد بالأمر ذي البال: الأمر الذي يهتم به شرعا بشرط ألا يكون من سفاسف الأمور ، ولا محرما ، ولا مكروها ،ولا ذكراً محضاً ، ولا مما جعل له الشارع مبدأ غير التسمية ، فإن كان من سفاسف الأمور كلبس النعل والبصق والمخط فلا تسن له البسملة ولا الحمدلة ، وإن كان محرّما لذاته كالسرقة والزنا حرمت البسملة له والحمدلة عليه ، وإن كان محرما لعارض كالوضوء بماء مغصوب لم تحرم ، وإن كان مكروها لذاته كالنظر إلى فرج زوجته بلا حاجة كرهت، وإن كان مكروها لعارض كأكل البصل لم تكره وإن كان ذكراً محضاً كقولك «لا إله إلا الله» لم تسن له البسملة ، أما إن كان غير متمحض للذكر كتلاوة القرآن فإن البسملة تسن له ، وإن كان الشارع قد جعل للأمر مبدأ غير البسملة والحمدلة كالصلاة فإن السنة أن يبدأه المكلف بما جعله الشارع مبدأ كالتكبير فى الصلاة.

(٢) اعلم أولا أن هذا الحديث يروى بروايات مختلفة ؛ فيروى فى صدره «كل أمر ذى بال لايبدأ فيه ببسم الله» ويروى «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد لله» ويروى

أو « أجْذَمُ » أى ناقصٌ وقليلُ البركة .

والله : عَلَم على الذات الواجب الوجود[1] ، والرحمن : المنعم بجلائل

فى عجزه «فهو أبتر» ويروى «فهو أقطع» ويروى «فهو أجذم» ، واعلم ثانيا أن الابتداء على ضربين : الأول : الابتداء الحقيقى ، والثانى الابتداء الإضافى ، فأما الابتداء الحقيقى فهو الابتداء بالشىء أمام المقصود بحيث لايتقدم على ذلك الشىء شىء ما ، وأما الابتداء الإضافى فهو الابتداء بالشىء أمام المقصود سواء أتقدم على ذلك الشىء شىء آخر غير المقصود أم لم يتقدم؛ فهذا أعم من الأول، وسمى إضافياً لأن الابتداء ليس ابتداء وتقدما على كل شىء بل هو ابتداء بالنسبة إلى شىء معين وهو المقصود ،إذا علمت هذين الأمرين فاعلم أن العلماء قد رأوا أن الروايات التى وردت فى عجز الحديث — وإن اختلفت فى ألفاظها — متفقة فى المعنى المراد ؛ فإن المقصود بكل ألفاظها أنه ناقص وقليل البركة، حتى إنه لو تم حسا لايتم معنى، فلما رأوا أن المعنى المراد لايختلف باختلاف الألفاظ لم يبحثوا عن طريق يجمعون به بين الروايات المختلفة ، ولكنهم رأوا أن الاختلاف فى الألفاظ التى ورد عليها صدر الحديث اختلاف جوهرى ، وأن العمل بإحدى الروايات يستلزم إهدار الرواية الأخرى لذلك بحثوا عن طريق للجمع بين الروايات المختلفة ، فأداهم النظر إلى أن يحملوا رواية الابتداء ببسم الله على الابتداء الحقيقى ، وأن يحملوا رواية الابتداء بالحمد لله على الابتداء الإضافى ويخصصوا رواية الابتداء بذكر الله بالبسملة والحمدلة ، فأما مستندهم فى ذلك كله فهو القرآن الكريم ؛ لأن ترتيبه التوقيفى مبتدأ ابتداء حقيقيا بالبسملة ومبتدأ ابتداء إضافيا بالحمدلة ، وهذا كله هو مايشير إليه قول الشارح هنا «أى بداءة حقيقية» وقوله فيما بعد « وأشار بقوله الحمد لله على صلاته حيث افتتح بالحمد افتتاحا إضافيا إلى الجمع بين حديثه الوارد به وحديث البسملة» وفى هذا القدر كفاية أى كفاية .

(١) يشير إلى أن المختار أن لفظ الجلالة علم شخصى، بمعنى أن مدلوله معين فى الخارج، لا بمعنى أنه قامت به مشخصات كالبياض والطول؛ لأن ذلك المعنى مستحيل بالنسبة لله سبحانه وتعالى والمقصود من هذا أن لفظ الجلالة ليس دالا على معنى كلى ، لأنه لو كان كذلك لم تكن كلمة التوحيد — وهى قولنا « لا إله إلا الله » — دالة على إفراده سبحانه بالألوهية دون سائر من عداه ، وقد أجمع المسلمون بل الموحدون من جميع الملل فى جميع الأعصار على أن هذه الكلمة دالة على التوحيد ، ومن أجل ذلك سميت « كلمة التوحيد» ،فوجب ألا يكون لفظ الجلالة دالا على معنى كلى ، فثبت أنه دال على معنى مشخص بالمعنى الذى ذكرناه

النِّعَمِ ، والرحيم : المنعِمُ بدقائقِها .

وأشار بقوله (الحمدُ للهِ عَلَى صِلاَتِهِ) بكسر الصاد - أى عَطِيَّاته، حيث افتتح بالحمد افتتاحاً إضافياً ، وهو ما يُقدَّم على الشروع فى المقصود بالذات ، إلى الجَمْعِ بين حديثه الوارِدِ به وحديثِ البَسْمَلة .

والحمد لغةً : الثناء باللسان على الفعل الجميل الاختيارِىِّ على جهة التعظيم والتبجيل ، سواء كان فى مُقابلة نعمة أم لا[1] ، واصطلاحاً: فعلٌ يُنْبِئُ عن تعظيم

---

(١) ههنا أربع ألفاظ تتقارب معانيها ، ولكن بين كل واحد منها والآخر تخالفا ما ، فوجب أن نحدد معنى كل واحد منها وننسبه إلى الآخر ؛ ليتضح أمرها تمام الاتضاح ، أما الألفاظ الأربعة فهى : الحمد ، والمدح ، والشكر . والثناء ، وأما معانيها فالحمد فى اللغة هو ما ذكره الشارح بقوله « الثناء باللسان على الفعل الجميل الاختيارى على جهة التعظيم والتبجيل سواء كان فى مقابلة نعمة أم لا » وقبل أن نشرح لك هذا التعريف نقول لك : إن فى قوله « الثناء باللسان » تخصيصاً للحمد بالحادث منه ، وذلك أن الحمد ضربان : أحدهما حمد حادث وهو ما وقع من الخلق، سواء أكان المحمود قديما كقولنا : الحمد لله ، أم كان المحمود حادثا كما تقول : حمدت زيدا ، وثانيهما حمد قديم، وهو ما كان من الله تعالى ، سواء أكان المحمود قديما كقوله سبحانه : الحمد لله ، أم كان المحمود حادثا كما فى حمده سبحانه لرسله ولعباده الصالحين ، وإنما كان فى تعريف الشارح تخصيص الحمد بالحادث منه لأنه جعله ثناء باللسان، واللسان جارحة الكلام للحوادث لا غير ، ويمكن أن يجاب بأحد جوابين : أولهما أن مراده تعريف الحمد الحادث فأل فى المعرف للعهد ، وثانيهما أن مراده تعريف الحمد مطلقا ، وقوله « باللسان » لا يراد منه الجارحة المخصوصة ، ولكن المراد منه هنا الكلام مطلقا ، وبعد فنقول : إن قوله « على الفعل الجميل » يراد به أن يكون الفعل المحمود عليه جميلا فى اعتقاد المحمود بزعم الحامد ، سواء أكان جميلا فى النظر العام الصحيح كفعل الخيرات أم لم يكن جميلا فى هذا النظر كنهب الأعمار والأموال فى نحو قول القائل :

نَهَبْتَ مِنَ الأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتَهُ ... لَهُنِّئْتَ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ خَالِدُ

. . . . . .

وقوله « الاختيارى » قيد لإخراج ما هو جميل لكنه حاصل بغير اختيار المحمود وفعله كطول قامة زيد وإشراق لونه ؛ فإن الثناء عليه بمثل ذلك يسمى مدحا ولا يسمى حمداً ، واعلم أن المحمود عليه غير المحمود به فى الحقيقة والماهية ، لأن المحمود عليه هو الفعل الصادر من المحمود ؛ والمحمود به هو الكلام الصادر من الحامد ، ثم قد يتحد ما صدقهما داتا ويختلفان اعتباراً كما إذا أكرمك زيد فقلت : زيد كريم ؛ فإن الكريم من حيث كونه باعثا لك على الحمد يقال له محمود عليه ، ومن حيث كونه مدلول العبارة يقال له محمود به ، وقد يختلفان داتا واعتباراً كما إذا أكرمك زيد فقلت : زيد عالم ، فإن المحمود عليه هو الكرم والمحمود به هو العلم

وأما المدح لغة فهو « الوصف بالجميل على الجميل مطلقا » نعنى أنه لافرق بين أن يكون الجميل الممدوح عليه اختياريا أم اضطراريا ، وسواء أكان الممدوح من ذوى العلم أم لم يكن ، كما فى مدح جوهرة بصفاء لونها ونقائها ، وسواء أكان فى مقابلة نعمة أم لم يكن ، فالحمد والمدح يشتركان فى أن كلا منهما لا يكون إلا بالكلام ، وفى أن كلا منهما لا يلزم أن يكون فى مقابلة نعمة واصلة من المحمود أو الممدوح إلى الحامد أو المادح ، وفى أن كلا منهما لايكون إلا بوصف جميل ، ويفترقان فى أنه يلزم فى المحمود عليه أن يكون اختياريا وأن يكون صادراً من ذوى العلم لأنهم هم الذين يتصور الاختيار منهم ؛ فبين الحمد والمدح عموم وخصوص مطلق ؛ والمدح الأعم .

وأما الشكر لغة فهو « فعل ينبىء عن تعظيم المنعم من حيث كونه منعما » والمراد بالفعل ما هو أعم من القول باللسان والاعتقاد بالجنان والعمل بالأركان التى هى الجوارح ؛ ومن هذا التعميم مع قولنا « تعظيم المنعم » مع أن المنعم هو موصل الإحسان يتضح لك أن الشكر أعم من كل من المدح والحمد من جهة ، وأخص من كل منهما من جهة أخرى ، وبيان ذلك أن الشكر يكون قولا واعتقاداً وفعلا من أفعال الجوارح فى حين أن الحمد والمدح لا يكون واحد منهما إلا كلاما ، فهذه جهة عموم الشكر ، وأن الشكر لا يكون إلا فى مقابلة نعمة صادرة من المشكور سواء أكانت عائدة على الشاكر أم على غيره فى حين أن الحمد والمدح لايلزم فيهما ذلك ، فهذه جهة خصوص الشكر ؛ فبين الحمد والمدح مع الشكر عموم وخصوص وجهى ؛ فبعض الحمد وبعض المدح يكون شكرا ؛ وهو مايكون بالكلام فى مقابلة نعمة ، وبعض الحمد وبعد المدح ليس شكرا ، وهو مايكون بالكلام فى غير مقابلة نعمة ، وبعض الشكر لا يسمى حمداً ولا مدحاً ، وهو ما يكون عملا من أعمال الجوارح فى مقابلة نعمة .

وقد اشتهر أن الحمد فى العرف هو نفس الشكر اللغوى ؛ فتكون النسبة بين الحمد اللغوى